

معانى الكلمات :

روحا : قرآنا أو نبوة أو جبريل .

الإيمان : الشرائع التفصيلية التى لا تعلم إلا بالوحى .

صراط مستقيم : دين قويم (دين الإسلام).

أم الكتاب : اللوح المحفوظ أو العلم الأزل.

صفحا : إعراضا أو معرضين عنكم .

بطشا : قوة .

مثل الأولين : صفتهم أو قصتهم العجيبة .

سبلا : طرقا تسلكونها أو معاش .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن القرآن نور يستضاء به فى الحياة .

٢ - أن نتعرف على ما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات .

٣ - أن نعرف مظاهر وحدانية الله فى الأرض .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق أنه كما أوحينا إلى الرسل من قبلك أو كما وصفنا حالات الوحى ، أوحينا إليك بمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا الاتصال ، فالوحى تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا ، أوحينا إليك ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وفيه حياة ، يث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العمل المشهود ، ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، هكذا يصور نفس رسول الله ﷺ وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحى .

يقول صاحب الظلال : « وقد سمع رسول الله ﷺ عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفا فى الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة فليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود هو اشتغال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها فى

الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لا بس قلب محمد عليه صلوات الله ، ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً يُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهذه طبيعته الخالصة ، طبيعة هذا الوحى ، هذا الروح ، هذا الكتاب ، إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها .

ويتوجه الخطاب إلى النبى ﷺ فيقول : إنك تبين القرآن لهم وتوضحه ، وتنبه وترغبهم فيه وتنههم عن ضده ، وترهبهم منه ، ثم فسر الصراط المستقيم بأنه الصراط الذى نسبه الله لعباده ، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ، وإلى الله ترجع جميع أمور الخير والشر ، فيجازى كلا بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

يقول صاحب الأساس : « الخصائص المذكورة فى السورة للجماعة المسلمة يجب أن نعطيها صيغتها العملية فى حياتنا ؛ لأنه لا جماعة للمسلمين بدونها ، ولا إقامة للإسلام بدونها » .

سورة الزخرف

تعرض هذه السورة جانباً بما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذا ذاك ، ولا يزال جانب منها قائماً فى النفوس فى كل زمان ومكان .

تبدأ السورة بالحرفين : « ح . ميم » ثم يعطف عليها قوله : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ويقسم الله سبحانه وتعالى جعله فى صورته هذه اللفظية من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس ح . ميم ، يقسم الله سبحانه بحا . ميم والكتاب المبين على الغاية من جعل هذا القرآن فى صورته هذه التى جاء بها للعرب ، فالغاية هى أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم ولسانهم الذى يعرفون ، والقرآن وحى الله - سبحانه وتعالى - جعله فى صورته هذه اللفظية عربياً ، حين اختار العرب لحمل هذه الرسالة ، لما يعلمه من صلاحية هذه الأمة ، وهذا اللسان لحمل هذه الرسالة ونقلها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وهذا القرآن فى الملاء الأعلى فى أعلى الرتب وأفضلها ، فهو ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، ورفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزاً من بينها محكم برىء من اللبس والزيغ ، وكما أن الحكمة فى هذا الكون لا يستطيع البشر الإحاطة بها فإن هذا القرآن لا يستطيع البشر أن يحيطوا بكنهه حكمته المتعددة الجوانب والظواهر والمظاهر ، وإنما يدركون بعضها .

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضى ألا يترك عباده هملاً ، لا يرسل إليهم رسولاً ، ولا ينزل عليهم كتاباً ، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال : أفعرض عنكم ، ونترك إنزال الذكر إليكم ،

ونضرب عنكم صفحا لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له ؟ بل نزل عليكم الكتاب ، ونوضح لكم فيه كل شيء ، فإن آمنتم به واهتديتم فهو من توفيقكم ، وإلا قامت عليكم الحجة ، وكنتم على بينة من أمركم ، ولقد كان عجيبا - وما يزال أن يعنى الله سبحانه - فى عظمتة وفى علوه وفى غناه - بهذا الفريق من البشر ، فينزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بها فى نفوسهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله فى المكذبين بعد إرسال النبيين ، فقد أرسل سبحانه كثيرا من الرسل ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يكذبونه ويسخرون به ، فأهلكنا من هو أشد بطشا من هؤلاء المسرفين المكذبين لك ، وسلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول الله ووعد لهم .

ويقرر السياق لئن سألت - يا محمد - هؤلاء المسرفين المستهزين المشركين الكافرين بهذا القرآن الشاكرين فيه : من خلق السموات والأرض ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد ، وموقف هؤلاء المشركين أقل سوءا من ملاحظة عصرنا الذين ينكرون وجود الخالق أصلا ، مع أن ذلك يتنافى مع كل الحقائق العقلية والعلمية .

يقول صاحب الظلال : « فهم كانوا يعترفون بأن الذى خلقهن هو « الله » ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها الإسلام ، هذه الصفات الإيجابية التى تجعل لذات الله فى نفوسهم أثرا فعلا فى حياتهم وحياة هذا الكون ، كانوا يعرفون الله خالقا لهذا الكون ، وخالقا لهم كذلك ، ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء ؛ لأنهم لم يعرفوه بصفاته التى تنفى فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافنة سخيفة ، والقرآن يعلمهم أن الله الذى يعترفون بأنه خالق السموات والأرض ، وهو ﴿ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ، فهو القوى القادر ، وهو العليم العارف فيبدأ بهم من اعترافهم ، ويخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف . »

وبعد أن ذكر الله - عز وجل - جوابهم اعتمد هذا الجواب ثم ذكرهم بفعله بهم الذى يقتضى منهم شكرا ، وهم لا يفعلون إلا كفرا قال تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أى : فراشا صالحا للحياة عليه والاطمئنان فيه ، وجعل لكم فيها طرقا ، لكى تهتدوا فى أسفاركم وفى سيركم من بلد إلى بلد .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - علينا بالقرآن الكريم وتدبره فهو روح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح .

٢ - كون الناس مسرفين فى الشرك والفساد لا يمنع وعظهم ونصحهم وإرشادهم .

٣ - من الخطأ ونكران الجميل أن نواجه أصحاب الرسالات والداعين إلى الإصلاح والموجهين إلى الخير بالإنكار والمقاومة والعناد والإيذاء لهم من غير أن نتدبر ما يدعوننا إليه .

معاني الكلمات :

بقدر : بمقدار .

أنشرنا : أحيينا .

مقرنين : مطيقين .

لمنقلبون : لراجعون .

أصفاكم : خصكم .

ينشوا في الحلية : يربي في الزينة والنعمة (البنات) .

يخرصون : يكذبون .

أمة : ملة ودين وطريقة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على بعض مظاهر قدرة الله تعالى ونعمه على عباده .

٢ - أن نعلم حال المشركين العرب في الجاهلية واعوجاج فطرتهم .

٣ - أن نعرف موقف الإسلام من التقليد .

المحتوى التربوي :

يقرر السياق أن الله تعالى نزل من السماء ماء بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ، بمقدار يسلم معه العباد وتحتاج إليه البلاد ، فأحيينا به أرضا ميتة لا نبات فيها ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها ، وبهذا قامت الحجة عليهم في شأن التوحيد وفي شأن اليوم الآخر ، فالذي أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ، والذي أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة ، فالإعادة من البدء ، وليس فيها عزيز على الله .

ثم هذه الأنعام التي يجعلون منها جزاء الله وجزءا لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ، إنها خلقها لتكون من نعم الله على الناس - يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ،

ويقابلون نعمته بما تستحقها ، والزوجية هي قاعدة الحياة كما تشير إليه الآية ، فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص التذكير والتأنيث معها ، بل ربما كانت الزوجية هي قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هي الذرة المؤلفة من إلكترون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن ، وعلى أية حال فالزوجية في الحياة الظاهرة ، والله هو الذى خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان ، وجعل لكم السفن والأنعام ، وذلّلها وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها ، وشربكم ألبانها وركوبكم على ظهورها ؛ لتستوا وتمكنين مرتفعين على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ، ثم تذكروا بقلوبكم نعمة ربكم فيما سخر لكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا بألسنتكم : سبحان الذى ذلل لنا هذا المركوب ، وما كنا له مطيقين ، وإنا إلى ربنا لصاثرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الأخرى ، وباللباس الدنيوى على الأخرى .

يقول صاحب الظلال : « هذا هو الأدب الواجب في حق المنعم ، يوجهنا الله إليه لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التى تغمرنا ، والتى نتقلب بين أعطافها ثم ننسأه ، والأدب الإسلامى في هذا وثيق الصلة بترية القلب وإحياء الضمير ، فليس هو مجرد طقوس تزاوّل عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ، وتشعر بينه في كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ، وهو محض الفضل والإنعام ، بلا مقابل منهم ، فما هم بقادرين على شئ يقابلون به فضل الله ، ثم لتبقى قلوبهم على على وجل من لقائه في النهاية لتقديم الحساب ... وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشرى في حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله ، ولا تحمد ولا تبذل بالركود والغفلة والنسيان » .

بما مر أقام الله عز وجل الحجة على وجوب شكره ، ويمضى السياق فيذكر عما قابلوا هذا من الكفر ، فقالوا : الملائكة بنات الله فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه كما يكون الولد جزءاً لوالده ، وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه بالكفر الذى لا شبهة فيه ، فنسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبهم إلى الله ، فإذا كان الله سبحانه متخذاً أبناء ، فما له يتخذ البنات ويصفيهم هم بالبنين ، وهل يليق أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لهم ويستأثرون ، أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستأثرون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود وجه أحدهم من السوء الذى يبلغ حدّاً يجل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من السوء ؟! أفما كان من

اللياقة والأدب ألا يخلصوا الله بمن يترى في الزينة والنعمة ولا يقدر على جدال ولا قتال ، بينما هم في بيئتهم - يحتفلون بالفرسان والمقاول من الرجال ؟!

فتحصل من السياق أنهم قد جمعوا في كفرهم أنواعا من الكفر ، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه ما يعتبرونه أقل النوعين الذكر والأنثى ، فأقاموه في أنفسهم المقام الأدنى ، وارتضوا له ما لا يرتضون لأنفسهم ، وجعلهم من الملائكة المكرمين فاستخفوا بهم إذ جعلوهم إناثا ، والملائكة مخلوقات نورانية لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا خنوثة ، ثم هم عباد الله ، وكيف تجتمع العبودية لله مع الولاء ؟ وهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به من خبر يوجب العلم ، ولم يشاهدوا خلقهم حتى يجربوا عن المشاهدة ، وستكتب شهادتهم التي شهدوا بها على أنوثة الملائكة وبنوتهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقالوا : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ، وما لهم بصحة ما قالوه واحتجوا به علم ، إن هم إلا يكذبون ويتقولون ، يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتهافت بين أيديهم الأسطورة ، فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راضي عن عبادتهم الملائكة ، ولو لم يكن راضيا ما مكنهم من عبادتهم ، ولمنعهم من ذلك منعًا .

وهذا القول احتيال على الحقيقة ، فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله ، هنا حق ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال ، وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال ، وإن كانت مشيئته أن يخلقه قابلاً للهدى أو الضلال ، وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خبطاً ، فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة ومن أين يأتيهم اليقين ؟ ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ويتبعون الأوهام والظنون .

أم آتيناهم كتابا من قبل القرآن أو من قبل شركهم فهم به آخذون عاملون ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فليس لهم في عبادتهم غير الله عز وجل برهان ولا دليل ولا حجة ، بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ، ولا من حيث السمع إلا قولهم : إنا وجدنا آباءنا على دين أو طريقة فقلدناهم ، إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا حجة ، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمشى حيث هو منساق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - مشروعية التسمية والذكر عند ركوب ما يركب ، وشكر الله على نعمه حق واجب .

٢ - وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتوسع له طاقة الإنسان

٣ - حرمة القول على الله بدون علم ، وحرمة التقليد بلا دليل .

معاني الكلمات :

- فطرني : خلقني .
 عقبه : ذريته إلى يوم القيامة .
 سخريا : مسخراً في العمل .
 معارج : مصاعد (سلام) .
 يظهرون : يصعدون ويرتقون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١- أن نعلم فضيلة من يورث أولاده هدىً وصلاًحاً .
 - ٢- أن نعلم الحكمة في الغنى والفقر ، والصحة والمرض والذكاء والغباء .
 - ٣- أن نعرف تفاهة متع الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن الآخرة خير وأبقى .
- المحتوى التربوي :

يعرض السياق مصائر الذين قالوا قولتهم المقلدة ، واتبعوا طريقهم في المحاكاة والتقليد ، وفي الإعراض والتكذيب ، بعد الإصرار على ما هم فيه على الرغم من الإعذار والبيان ، ويتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ أو لـ ﴿ مُّقْتَدُونَ ﴾ ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد ، ولو كان أهدي ، ولو كان أجدي ، ولو كان يصدع بالدليل ، وثم لا يكون إلا التدمير والتشكيل لهذه الجبلية التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرض عليهم لعلمهم يتبنون عاقبة الطريق الذي يسلكون .

وبعد أن ذكر الله عز وجل أن علة هؤلاء هو تقليد الآباء بغير حجة ولا دليل ولا برهان ، يذكر لنا نموذجاً لموقف الإنسان الكامل المتحرر من التقليد الباطل للآباء ، وذلك في شخصية إبراهيم عليه السلام ، إن دعوة التوحيد التي يتكبرون لها هي دعوة أبيهم إبراهيم ، الدعوة التي واجه بها أباه وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد أنه وجد أباه وقومه عليها ، بل لم يجاملهم في إعلان تبرئه المطلق منها في لفظ واضح صريح ، ويبدو من حديث إبراهيم عليه السلام - وتبرئه مما يعبدون إلا الذي فطره أنهم لم يكونوا يكفرون ويحجدون وجود الله أصلاً ، إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواه ، فتبرأ من كل ما يعبدون ، واستثنى الله ، ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداءً ، وهو أنه فطره وأنشأه ، فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد ، وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذي فطره وليهديه ، وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة ، كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود ، وجعلها باقية في ذريته فلا يزال من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، والترجى لإبراهيم ، ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم ، ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم ، عرفت على لسان نوح وهود وصالح وإدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ولها ، فلما عرفت على لسان إبراهيم عليه السلام ظلت متصلة في أعقابه ، وقام عليها من بعده رسل متصلون لا يقطعون .. وأشبهه أبناؤه به : محمد ﷺ خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة .

وبعد أن ذكر الله عز وجل النموذج الكامل للموقف الحق من ضلال الآباء يعود السياق ليحدثنا عن موقف المشركين من دعوة رسول الله ﷺ وعن أسباب اغترارهم ، فهؤلاء وآباؤهم من قبلهم قد هيأت لهم المتاع ومددت لهم في الأجل ، حتى جاءهم الحق في هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين ، ولا يختلط الحق بالسر فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها ، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يمدحون الجماهير من خلفهم ، فيقولون إنه سحر ، ويعلمون كفرهم به على سبيل التوكيد ، ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد ، شأن الملأ من كل قوم في التغرير بالجماهير .

ثم يحكى القرآن تخليطهم في القيم والموازن ، وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور ، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ ﴾ مكة والطائف ﴿ عَظِيمٍ ﴾ أرادوا بالعظيم من كان ذا مال وجاه ، ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيماً ، يعنون الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي ، ورد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء ، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ، مبينا لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله .

﴿ أَهْمَرِ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾؟ يا عجباً! وما لهم هم ورحمة ربك؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ، ولا يحققون لأنفسهم رزقاً حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ، وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة ، ولم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة؟ أو كما فضلت البعض على البعض في الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشياء ، وجعلنا البعض أغنياء وأقوياء وأسياداً والبعض غير ذلك ، وجعلنا البعض أذكىاء وعقلاء والبعض غير ذلك ، ثم بين الله عز وجل الحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات وهى ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال .

يقول صاحب الظلال « ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً ، وليس التسخير هو الاستعلاء ، استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . كلا .. ، إن هذا معنى قريب ساذج لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهى الخالد ... إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة المركوزة في فطرة هذا الوجود ... وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل ، وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض ، ولو كان جميع الناس نسخاً مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة ، ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها - والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها ، ذلك شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا ، ووراء ذلك رحمة الله ، والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أن لها أهلاً .

وفي الآية بعدها يقول القاسمى : « ولولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة للترافد والتعاون والتضام ، وما به قوام حياتهم كالجسم الواحد ؛ لجعلنا للناس وما ذكر من الزين والحلى لدخوله تحت القدرة الكاملة إلا أن ذلك مبطل للحكمة وغرب لنظام الوجود وأنه لولا التسخير لآتاهما أخط الخلق وجعلنا لبيوتهم سقفاً من فضة ومساعد من فضة وسلام عليها يرتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

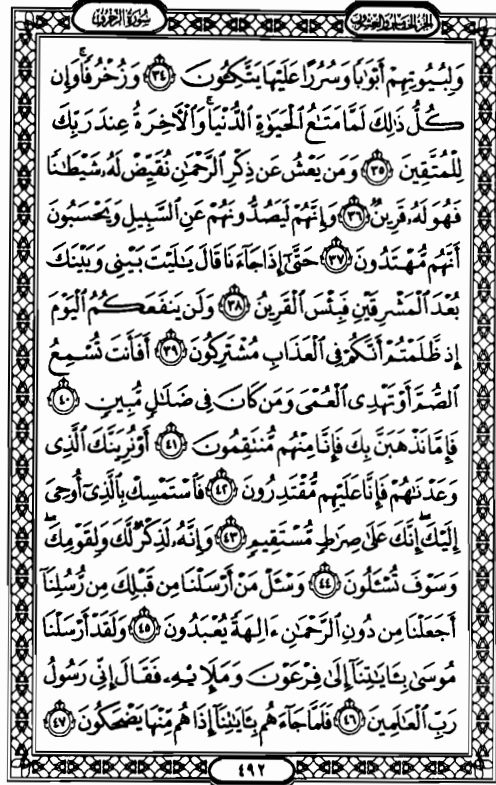
١ - فى قصة إبراهيم عليه السلام ما يهديننا إلى أن نبحت بأنفسنا لنصل إلى الحقيقة وننادى بها ، وندافع عنها ونقف من ورائها ، فهى قصة الجهاد في سبيل الحق والصبر على الآلام ؛ إعلاء لكلمة الله .

٢ - وجوب البراءة من الشرك والمشركين .

٣ - فضل الله بعض الناس على بعض في الرزق وفي الدرجات ، وهذا ليتنظم أمر الحياة ويتعاون الناس .

معاني الكلمات :

- زخرفا : ذهباً أو زينة مزوقة .
يعش : يعرض ويتغافل .
نقيض : نهى ونسب .
قرين : مصاحب وملازم لا يفارقه .
المشرقين : المشرق والمغرب .
نذهبن بك : قدرنا عليك الموت .
وإنه لذكر : إن القرآن لشرف عظيم .
بآياتنا : بمعجزاتنا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم حال من يتغافل ويتعامى عن دين الله عز وجل .
- ٢ - أن نتعرف على نعمة القرآن .
- ٣ - أن نعرف ما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعائن الله .

المحتوى التربوي :

يقول صاحب الأساس : « ولولا أن يصبح الناس كلهم كفاراً لجعلنا للكفار سقفا ومصاعد وأبواباً وسراً كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفاً أى زينة من كل شيء ، دل هذا على أن مما يفتن المسلم عن دينه رؤيته الكافرين في حالة اقتصادية أجود ، وهذا هو الذى نراه في عصرنا ؛ إذ فتن كثير من المسلمين عن الإسلام بسبب رؤيتهم مجتمعات كافرة في حالة اقتصادية جيدة ، بل أصبحوا يدعون إلى هذه الأنظمة الكافرة ويتبعونها من أجل الوصول إلى ما هم عليه ، وقد أخطؤوا مرتين : مرة إذا استبدلوا الحق بالباطل ، ومرة لتصورهم أن تطبيق الإسلام لا يوصل إلى الرفاه أو إلى التقدم المادني ، وكيف والله عز وجل وعد المتقين بأن يفتح عليهم بركات من السماء والأرض . »

ثم قال تعالى بعد أن بين حقارة الدنيا عنده حتى ليعطيها الكافرين لولا أن يفتن المسلمون ، وما كل ذلك إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله ، وثواب الآخرة عند الله لمن اتقى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى ، وهى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد .

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ، وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ، وأن الآخرة عند ربك للمتقين ، استطرد ببيان مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض وهم عمن ذكر الله منصرفون عن الطاعات التى تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين، والعشى كلال البصر عن الرؤية وغالبًا ما يكون عند مواجهة لضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحرق فيه أو عند دخول الظلام وكلال العين الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص، والمقصود هنا هو الحماية والإعراض عن تذكر الرحمن ، واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقه الإنسان ذلك واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له سوء ، ووظيفة قرناء سوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون ، وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين ، أن يصدّه عن السبيل الواحدة القاصدة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ لَيَصُدُّوهُمْ ﴾ و﴿ يَحْسُبُونَ ﴾ يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون ، ويصل العمى إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين سوء الذى زين له الضلال ، وقاده فى طريق الهلاك وهو يلوح له بالسلامة ، ينظر إليه فى حق ويقول : ياليت لم يكن بيننا لقاء على بعد المشرق والمغرب ، وبشس الشيطان قرينا ، وقد صح ظلمكم وكفركم وتبين ، ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين ، ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب أو كونكم مشتركين فى العذاب كما كان عموم البلوى يطيب القلب فى الدنيا ، وهكذا بين الله عز وجل عاقبة الغفلة والإعراض عن كتابه فى الدنيا والآخرة .

ويتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ يسليه عن هذا المصير البائس الذى انتهى إليه فريق من البشر ، ويضع حدوداً فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة فى أعلى درجاتها عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية الطليقة ، وتثبيت معنى التوحيد فى صورة من أدق صوره ، فوظيفة الرسول أن يسمع من يسمع ، وأن يهدى من يبصر ، والذين لا يستمعون للحق استماع قبول ، ففى آذانهم صمم عن سماع الحق ، والذين فقدوا بصر البصيرة ، ففى قلوبهم عمى لا يرون معه الحق ،

ومن كان في ضلال عن الحق فلا يعرف فليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب ، ونشفى صدور المؤمنين منهم فلا بد أن نتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهب أنت ، أو نرينك الذي وعدناهم من العذاب الدنيوى قبل أن نتوفاك وإنا عليهم قادرون ، فتمسك بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق ، المفضى إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم .

وفى الآية بعدها يقول صاحب الظلال « ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين : إن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير ، أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكر قومك ، وهذا ما حدث فعلا ... وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التى اختارها الله لدينه ، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة ، إذا هى تخلت عن الأمانة » .

ويطلب السياق السؤال للرسل ، وليس المراد بسؤالهم حقيقة السؤال ، ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء ، وكفاه نظراً وفحصاً فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، وهذه الآية كافية لا حاجة إلى غيرها ، وهو سؤال تقرير لعبدة الأوثان أنهم على الباطل .

والله عز وجل يقص علينا من نبأ هؤلاء المرسلين ليرينا أن دعوة الرسل السابقين جميعاً هى دعوة هذا القرآن فى التوحيد ، وفى ذلك دليل من خلال المضمون على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول سبحانه مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظيمة ؛ كيداه وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا بمن جاءهم بها ، وسخروا منها ، وهزئوا بها وسموها سحراً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - على الدعاة إلى الله أن يثبتوا على الحق ، وأن يستهينوا بالصعاب التى يلاقونها مع استمرارهم فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

٢ - المعركة دائمة بيننا وبين الشيطان وجنوده ، والمؤمن العاقل هو الذى يصرف وساوس الشيطان .

٣ - القرآن ذكر وشرف لمن أراد الذكر والشرف فعليه بالاتباع .

معاني الكلمات :

- ينكثون : ينقضون عهدهم .
 من تخنى : من تحت قصورى .
 مهين : ضعيف .
 يبين : يفصح عن الكلام .
 مقرنين : مقرونين به مصاحبين له .
 استخف قومه : استثارهم واستفزهم .
 سلفا : قدوة للكفار في استحقاق العذاب .
 خصمون : لُدُّ شداد الخصومة بالباطل .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على قصة موسى عليه السلام مع فرعون وجنوده ، وكيف كانت العقابة .
- ٢ - أن نعلم ماهية دعوة عيسى عليه السلام وحال قومه معه .
- ٣ - أن نعرف قدرة الله الطليقة ، وأنه قوى شديد العقاب .

المحتوى الزبوي :

يشير السياق إشارة سريعة إلى الآيات التي عرضها موسى وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها ، وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدى موسى عليه السلام مدعاة إيمان ، وهى تأخذهم متتابعة ، كل آية أكبر من أختها ، مما يصدق قول الله فى مواضع كثيرة ، وفحواه أن الخوارق لا تهدى قلباً لم يتأهل للهدى ، وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدى العمى ، وقد أخذهم الله بالعذاب ؛ كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الزروع والأنفس والثمرات ، لعلهم يرجعون عن الكفر إلى الإيمان ، ومع ذلك لم يرجعوا .

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم ﴿يَتَأْتِيَ آلَسَّاحِرِ آدَعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء ، ومع ذلك

يقولون له : ﴿ يَتَأْتِيَ السَّاحِرُ ﴾ ويقولون كذلك : ﴿ آذَعُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ وهو يقول لهم : إنه رسول ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ، ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطتها بشاشة الإيمان على الرغم من قولهم : ﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى مؤمنون به ، فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينقضون العهد بالإيمان ولا يوفون به .

وهنا يبرز فرعون فى جاهه وسلطانه ، وفى زخرفته وزينته ، غلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة فى عهد الطغيان ، المخدوعة بالأبهة والبريق ، ونادى فرعون بنفسه أو أمر مناديا فنادى ، ويحتمل أنه عمم تعميما ، أو وزع منشورا ؛ إذ إن بعض أوراق البردى المكتشفة تذكر أن رع مسيس الثانى وزع منشورا - عثر على بعض نسخه - يدعو فيه إلى ألوهيته ، ولكن هناك خلاف فى أن رع مسيس الثانى هو فرعون موسى ، المهم غره ملكه فقال : أأست مالك مصر والمتصرف فيها ، وهذه الأنهار المنسحبة من النيل فى وسط القصور والبساتين ، أفلا تبصرون هذا الملك الطويل العريض ، وما يقوله فرعون أمر قريب مشهود للجماهير يبهرها وتستخفها الإشارة إليه ، فأما ملك السموات والأرض ومن بينها - ومصر لا تساوى هباءة فيه - فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه ، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد .

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب ، وأخذ يلقي فى روعها أنه خير من موسى الضعيف العيى ، فقد ادعى فرعون - لعنه الله - أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا فعليه لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ، وقوله : ﴿ وَلَا يَكَاذُ بَيْنُ ﴾ فهوا استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان ، وإلا فقد استجاب الله دعاءه ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاجْلُ عَقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۖ يَقْفَهُوا قَوْلِي ۖ ﴾ (طه) وحلت عقدة لسانه فعلا وعاد يبين ، وعند الجماهير الساذجة الغافلة لابد أن يكون فرعون الذى له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته خيرا من موسى ﷺ ، ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم .

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ هكذا من ذلك العرض التافه الرخيص ، أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول ! أسورة من ذهب تساوى أكثر من الآيات المعجزة التى أيد الله بها رسوله الكريم ، ﴿ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ، فاستخف قومه وهو أمر لا غرابة فيه ، فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا يبحثون عنها ، ويلقون فى روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة ، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه

الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمسون بحبل الله ، ولا يزنون بميزان الإيمان !

وانتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ، وامت الفتنة وأطاعت الجواهر فرعون الطاغية المتباهى في خيلاء ، فحققت كلمة الله وتحقق النذير لما أغضبوا الملك الجبار وآسفوه ، فأغرقهم جميعاً ، وجعلهم سلفاً يتبعه كل خلف ظالم ومثلاً لمن يميؤون بعدهم ويعرفون قصتهم فيعتبرون .

ويتنقل السياق إلى قصة عيسى عليه السلام لما ضرب مثلاً من قبل الكافرين في كونه عبد من دون الله ، وذلك دليل في زعم الكافرين أنه في النار بناء على ما ورد في سورة الأنبياء أنهم وما يعبدون من دون الله حصص جهنم ، فهذا عيسى يعبد من دون الله ، فاستدلوا بذلك على أن القرآن ليس مستقيم العبارة وأنه ... وأنه ... وأنه ... ، وبناء عليه : ما دام عيسى على رأى القرآن في النار - وليس ذلك معقولاً - فآلتهنم ليست في النار ، ورتبوا على هذا الأمر ضرورة الثبات على كفرهم وصدودهم عن الحق ، وأصبح القوم من هذا المثل يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا وهم في صدود عن الحق ، وقالوا : إن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؛ فإذا كان عيسى من حصص النار كان أمر آلهتنا هينا ، وما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية ؛ لأنها لما لا يعقل ، ثم هي خطاب لقريش وكانت عبادتهم الأصنام ، بل هم قوم لداد شداد الخصومة دأبهم اللجاج .

وما عيسى عليه السلام إلا عبد كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوة ، وصيرناه عبرة عجيبة ، ودلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء ، ولو شاء الله لقدرته على عجائب الأمور لبدل من هؤلاء الرجال ملائكة يخلفونهم كما يخلفهم أولادهم في الأرض ، والآية تدلل على قدرة الله ، وعلى انفراده بالوحدانية ، وأن الملائكة وعيسى ليسوا إلا عبيداً لله ، وفيها تهديد لأهل الأرض بإهلاكهم ، وفيه تحذير لقريش من تماديها في مثل هذا الكفر وجرأتهم عليه ، فمرد الأمر إلى مشيئة الله في الخلق ، وما يشاؤه من الخلق يكون ، وليس أحد من خلقه يمت إليه بنسب ولا يتصل به - سبحانه إلا صلة المخلوق بالخالق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - في قصة موسى عليه السلام وما يهدينا إلى التمسك بالحق ؛ لأن النصر في النهاية له .
- ٢ - تأييد الله لأنبيائه بالمعجزات الخارقة للعادة ؛ لتأكيد صدقهم فيما يدعون إليه الناس .
- ٣ - حقارة الدنيا وقلة شأنها وهوانها على الله تعالى ، وفي قصة عيسى عليه السلام ما يوجهنا إلى الحق والخير والود .

معانى الكلمات :

تتمرن : تشكوا .

يصدنكم : يدفعنكم .

بغته : فجأة .

الأخلاء : الأصدقاء والأحباب .

تجبرون : تسرون وتنعمون .

صحاف : آنية .

أورثتموها : فزتم بها وصارت لكم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على مزاعم بعض الناس على عيسى عليه السلام .

٢ - أن نعلم حقيقة رسالة عيسى عليه السلام إلى قومه .

٣ - أن نعرف اختلاف جزاء المتقين والمجرمين يوم القيامة .

المحتوى التربوي :

يقرر السياق شيئاً عن عيسى عليه السلام ، يذكرهم بأمر الساعة التى يكذبون بها أو يشكون فيها ، وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية « وَإِنَّهُ لَعِلَّمَ لِّلسَّاعَةِ » بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية : « وَإِنَّهُ لَعِلَّمَ لِّلسَّاعَةِ » بمعنى أمانة وعلامة ، وكلاهما قريب من قريب ، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود .

وهو غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين ، وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين ، وكانوا يشكون فى الساعة ، فدعاهم القرآن إلى اليقين ، وكانوا يشردون عن الهدى ، ودعاهم القرآن على لسان رسول الله ﷺ إلى اتباعه فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه ، ويبين لهم أن انحرافهم وشرورهم أثر من اتباع الشيطان ، والرسول أولى أن يتبعوه .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبيهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى فى الجنة ، وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدواً يقف له بالمرصاد وعن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ، ثم لا يأخذ حذره ، ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدو الصريح .

وقد أقام الإسلام الإنسان فى هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طول حياته على هذه الأرض ، ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر ، وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائمة ... التى تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ... » .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى عليه السلام وحقيقة ما جاء به ، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده ، فلما جاء عيسى بالمعجزات البينات الواضحات الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به ، قال لبنى إسرائيل قد جئتكم بالنبوة والعلم ؛ لأبين لكم صواب الذى تختلفون فيه من الأمور الدينية لا الدنيوية ، فاتقوا الله فيما أمركم به وأطيعون فيما جئتكم به ، وما أنا وأنتم إلا عبيد له سبحانه ، فقراء إليه ، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له ، فاعبدوه وحده ، فعبادة الله وحده هى الصراط المستقيم ، واختلف الأحزاب من بين النصارى ؛ اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ قَوْلِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ﴾ يوم القيامة .

وحين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى عليه السلام مع المحاجين لرسول الله ﷺ بفعل هذه الأحزاب ، ويصور حالهم يوم القيامة فى مشهد يحتوى كذلك على صفحة المتقين المكرمين فى جنات النعيم ، يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها ، هذه المفاجأة تحدث حدثاً غريباً ، يقلب كل ما كانوا يألفونه فى الحياة الدنيا ، فعداء الأخلاء ينبع من معين ودادهم ، لقد كانوا فى الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويملى بعضهم لبعض فى الضلال ، فالיום يتلاومون ، واليوم يلقى بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر ، واليوم ينقلبون إلى خصوم - يتلاحقون من حيث كانوا أخلاء

يتناجون، إلا المتقين فهؤلاء مودتهم باقية؛ فقد كان اجتماعهم على الهدى، وتناصحهم على الخير، وعاقبتهم إلى النجاة .

وبينما الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالنداء العلوى الكريم للمتقين المتحابين فى الله يومئذ بأنه لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور ، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها ، وإذا انتفى المكروه من كل وجه ، ثبت المحبوب المطلوب ، هؤلاء هم الذين آمنوا وصدقوا بالقرآن وكانوا منقادين له فى جميع أحوالهم ، فجمعوا بين الاتصاف بعمل الظاهر والباطن . يقال لهم : ادخلوا الجنة أتم وأزواجكم المؤمنات فى الدنيا ، تسرون سرورًا يشيع فى أعطافكم وقسماتكم فيبدو عليكم الحبور .

ثم تشهد بعين الخيال - فإذا صحاف من ذهب وأكواب يطاف بها عليهم ، وإذا لهم فى الجنة ما تشتهيه الأنفس ، وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون ، كما لا وجمالًا فى التكريم ؛ تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدين بطعامهم ، بأحسن الأوانى وأفخرها ، وهى صحاف الذهب وشرابهم بألطف الأوانى ، وهى الأكواب التى لا عرى لها وهى من أصفى الأوانى ، من فضة أعظم من صفاء القوارير ، وفى الجنة ، ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهذا لفظ جامع يأتى على كل نعيم وفرح ، وقررة عين ، وسرور قلب ، فكل ما اشتتهه النفوس من مطاعم ومشارب ، وملابس ، ومناكح ، ولذته العيون من مناظر حسنة ، وأشجار محدقة ، ونعم موفقة ، ومبان مزخرفة ، فإنه حاصل فيها ، معد لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها ، وتمام النعيم الخلد الدائم فيها الذى يتضمن دوام نعيمها وزيادته وعدم انقطاعه .

ومع هذا النعيم ، ما هو أكبر منه وأفضل ، التكريم بالخطاب من العلى الكريم بأن أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل الجنة أحد بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنها الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحة التى تعاطاها المؤمنون ، ولكم فى هذه الجنة فاكهة كثيرة من جميع الأنواع ، منها تأكلون مما تتخرون من تلك الفواكه الشهية ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربيويًا :

١ - الجنة جزاء المؤمنين المخلصين فضلًا ورحمة من عند الله، ونزول عيسى عليه السلام من علامات قرب قيام الساعة.

٢ - من واجب كل مسلم أن يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقنع به الآخرين .

٣ - كل صداقة لغير الله تنقلب يوم القيامة عداوة .

معاني الكلمات :

يفتر : يخفف .

مبلسون : يائسون .

أبرموا أمرا : أحكموا كيداً .

يحسبون : يظنون .

نجواهم : ما يتحدثون به سرا .

بخوضوا : يدخلوا مداخل الباطل .

يؤفكون : فكيف يصرفون عن عبادته

تعالى .

فاصفح : فأعرض .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم عاقبة المجرمين يوم القيامة ، وما هم فيه من عذاب شديد .

٢ - أن نتعرف على فساد عقيدة الكافرين في الله عز وجل .

٣ - أن نعرف أنه لا خلاص ولا شفاعة إلا بإذن الله الذي له التمجيد والتقديس .

المحتوى التربوي :

قص الله عز وجل علينا ما أعدّه للمتقين المؤمنين المسلمين في الجنة يوم القيامة بعد أن تقوم الساعة ، والآن يحدثنا عن حال أهل النار ، فالذين أجرهم بكفرهم وتكذيبهم في عذاب دائم في جهنم منغمرون فيه ، محيط بهم العذاب من كل جانب ، وفي درجة شديدة عصبية لا يفتر لحظة ، ولا يبرد هنيهة ، ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد ، فهم فيه بائسون قانطون ، كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين ، فهذا العذاب العظيم بما قدمت أيديهم ، وبما ظلموا به أنفسهم ، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم .

ثم تتناوح في الجو صيحة من بعيد ، صيحة تحمل كل معانى اليأس والكرب والضيق ، ﴿ وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ ﴾ ، إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق ، من هناك من وراء الأبواب المرصدة في الجحيم ، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين ، إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث ، فهم مبلسون يائسون ، إنما يصيحون في طلب الهلاك ، الهلاك السريع الذى يريح ، وحسب المنايا أن تكن أمانيا ، وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق ، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صواها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة ﴿ يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ ﴾ ولكن الجواب يجيء في تيثيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام بأنه لا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء ، إنكم ماكنون .

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المعرضين عن الهدى ، الصائدين على رؤوس الأشهاد في أنسب جو للتحذير والتعجب .

يقول صاحب الظلال : « وكراهة الحق هى التى كانت تحول بينهم وبين اتباعه لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ، فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه ؟ والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ؛ لأنه يصادم أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ولكنهم أجراً على الحق وعلى دعائه ، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجترار على الدعاة ، لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت العليم بما يسرون وما يمكنون فأصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم ، وإرادته بتمكين هذا الحق وتثبيتته ... ، وتديبرهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى ، والعاقبة معروفة حين يقف الخلق الضعاف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم » .

وهم إذ يكيدون لمحمد ﷺ ويأثمون ، فالله عز وجل يسمعها ويطلع عليها ، والحفظة عندهم يكتبون أعمالهم صغیرها وكبیرها .

ويأمر الله عز وجل رسوله أن يعلن : قل يا محمد : لو فرض أن للرحمن ولداً لعبده على ذلك ؛ لأننى عبد من عبيد الله ، مطيع لجميع ما يأمرنى به ، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا ، فهذا على سبيل الفرض ، والمراد نفى الولد وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهى محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها .

ثم نزه الله عز وجل ذاته عن اتخاذ الولد ، فتعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفه له ولا ولد له ، وهو رب السموات والأرض

والعرش فلا يكون جسماً ؛ إذ لو كان جسماً لم يقدر على خلقها ، وإذا لم يكن جسماً لا يكون له ولد ؛ لأن التولد من صفة الأجسام ، وبعد أن أمره الله أن يعلن هذا الإعلان ، وبنزه الله هذا التنزيه بعد أن أقام عليهم الحجة في السورة ، أمر الله رسوله ﷺ ، والأمر الثانى ، فدعهم يخوضوا في باطلهم وجهلهم وضلالهم ، ويلعبوا في دنياهم حتى يلاقوا يوم القيامة ، فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم ، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب .

ويعود السياق للتعريف بالله عز وجل ، ويعالج أصل قضية العقيدة الفاسدة التى تنبع عنها المواقف السيئة ، فيخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السموات والأرض فأهل السموات كلهم ، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله ، ويفتقرون لكمالها ، فهو تعالى المألوه المعبود الذى يأله الخلائق كلهم ، طائعتين مختارين وكارهين ، وهو سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه ، متوحد ، متمجد بجلاله ، وهو الذى أحكم ما خلقه ، وأتقن ما شرعه ، فما خلق شيئاً إلا لحكمة ، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة ، وحكمه القدرى والشرعى والجزائى مشتمل على الحكمة ، وهو العليم بكل شئ ، يعلم السر وأخفى . ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ فَهُوَ خَالِقُهَا وَمَا لَهَا مِنْ شَيْءٍ عِندَهُ بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ هُمْ لَا يَعْلَمُ ۚ سُبْحٰنَ عِزِّهِ ۚ ذَا جَلَالٍ ۚ وَٱلْإِكْرَامِ ۚ ۝١٠٠﴾ . وهو الذى يعلم متى تجيء الساعة ، وإليه ترجعون فى الآخرة ، ولا يملك شركاؤهم وآلهتهم الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، فلا يعطى الشفاعة إلا من شهد بكلمة التوحيد وهم يعلمون أن الله ربهم حقاً ويعتقدون ذلك ، ولئن سألت المشركين من خلقهم ليقولن الله لا الأصنام ولا الملائكة ، ومع هذا يعبدون معه غيره فكيف يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟!

وقال الرسول ﷺ لله شاكيا ، يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون لما شاهد من عنادهم وتصلبهم شكاهم إلى ربه تعالى فأمره أن يعرض عن دعوتهم يائسا من إيمانهم وودعهم وتاركهم ، وقل لهم سلام ولا تجهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم قولا وفعلا فسوف يعلمون عاقبة هذا الإصرار ، وهذا تهديد من الله لهم وأحل بهم بأسه وشرع الجهاد والجلاء ، وفيه تهديد آخر بما سيرونها كذلك فى اليوم الآخر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - كل من أعرض عن الله تعالى جزاؤه الهزيمة والخذلان .

٢ - الإيمان بوجود الله ووحدانيته فطرة فى النفوس البشرية المستقيمة ، لا ينحرف عنه إلا الظالمون .

٣ - ضرورة إعمال الفكر والنظر فى ملكوت السموات والأرض .